المحاضرة الخامسة : 4- المدرسة العرفانية الجديدة

يرى " كينيت E.Quinet " أن آسيا تزخر بالأنبياء وأوروبا بالأطباء (Génie des religions..P47) هذا التصور الغربي قاصر من حيث أن المجتمعات الشرقية مثلها مثل المجتمعات الغربية تعددية في تصورها للأشياء ، على عكس هذا الإلحاح الغربي الذي يتصورها مختلفة عن ماهيته ، أسيرة نظرة أحادية في التفكير ، وهذا انطبق عليها بعد تعميم" العولمة " ، و جعلت الغرب أعمى عن وجهات النظر المتصارعة ...إن إتاحة اللقاء بالآخر ، يسهم في تقييم صحيح للحضارة المستقبلة لنصل معا ، إلى " التثاقف " ،وإبعاد النمط الأصلي الذي يمنع التطور !

الاستشراق ليس مذهبا وضعيا للشرق الموجود في كل مرحلة عند مخيلة الغرب ، بل هو تقليد جامعي قوي ، ومجالات محددة من طرف الرحالة ، والمؤسسات التجارية ، والحكومات ، والغزوات العسكرية ، أما قراء الروايات و مبدعي الحكايات عن المغامرات والمختصين في التاريخ الطبيعي والحجاج ؛ فيرون أن الشرق هو نوع خاص لمعرفة الأماكن و الحضارات النوعية .

يؤكد " إدوارد سعيد " أن الاستشراق ينبغي أن يرقى إلى التعامل الفعلي بوصفه جزءا من التاريخ العلمي و مسائله و همومه ، لا بوصفه معلومات سرية أو ساحة حرب بينه وبين الشرق ، فالسياسة التي ترد في العرف العربي- الإسلامي السائد التي تميل إلى المواجهة العدائية هي شأن " لا- تاريخي " ، وإن ننسب الاستشراق إلى هذا " اللاتاريخي " ، نجعله هو نفسه " لا تاريخي " ، وبالتالي فإن أعداء الاستشراق يقعون في نفس أخطاء المستشرقين في اختزال الوقائع و تنمية ثقافة الحقد ، هناك نقد لا يتسم بالتناسق عند أحد كبار المفكرين العرب (صادق جلال العظم) ، الذي اعترض على المسلمات التي وصل إليها إدوارد سعيد والتي صنفها في قائمة الثوابت ، خاصة فيما يتعلق بتمجيده للويس ماسينيون و حيب ، إلا أنه يتوجه في القسم الثاني من كتابه إلى الحركات التي يسميها "إسلامانية " – حسب تعبير الكاتب - والتي صنعت عنوان كتابه :" الاستشراق المعكوس " ، هذا الوصف و إن كان يعكس بعض القضايا الجوهرية التي تعبر عن ضيق الأفق الفكري لدى بعض ممثلي هذا التيار و ضيق البعد في مجال الممارسات ، إلا أن هذا الكتاب الذي ألف سنة 1981 م ، يدمج بطريقة قسرية بعض المفكرين في " الأنتلجانسيا الإسلامانية " ، مثل : أدونيس – أنور عبدالمالك وغيرهما .....؟! إن هذا الكتاب هو نقد للاستشراق و الاستشراق المعكوس و لإدوارد سعيد و للإسلامانيين ، ولكنه لا يعدو سجالا إيديولوجيا على أنساق فكرية متباينة و لكنها أكثر تنظيما .

غوتة والاستشراق الموضوعي :

كان الاستشراق الألماني ، نشيطا خاصا في مجال التصوف والأدب ، ينبهنا " فايشر " أن اللغة الألمانية في حد ذاتها ذات طبيعة شرقية هذا ما يقربها من اللغات الشرقية وخاصة اللغة العربية ، ويشرح لنا الصدمة التي وقعت للشعراء الألماني في البداية ، وخاصة " غوتة Goethe، لكنهم ما يفتؤون يحبونها ثم يكتبون عنها أو ينظمون أبياتا عنها أو يؤلفون مسرحيات مثل ما فعل " غوتة " ، حول النبي صلى الله عليه وسلم ، أما تأثير التصوف المسيحي على التصوف الإسلامي – على العكس من ذلك ، عند الإسباني " رامون لول " ، فقد كان شائعا ، ما يهمنا هو أن الاستشراق الحالي ليس وليد الأمس القريب بل الأمس البعيد ، فرامون لول عاصر القرن 13 م ، وأخذ عن المتصوفة الذين سبقوه أو عاصروه مثل أبي حامد الغزالي ، القشيري ، ابن عربي ، الكلباذي ...الخ ، لقد كان " غوتة " أحسن ممثل الحوار بين الشرق الإسلامي والغرب الألماني ، وفي بيت من أبياته يقول :« من عرف نفسه والآخرين لا بد أن يعلم حينئذ أن لا انفصام لعروة بين مشرق و مغرب ... wer sicht selbst und andere kenut , word auch hier ex kennen orient und okzident sind nicht mehr zu trennen ». .. ……..

مدح الشاعر " محمد إقبال " الشاعرين " جلال الدين الرومي " و " غوتة " بقوله :-

شاعر الألمان في روض إرم :. فاز بالصحبة من شيخ العجم

قضى للعارف بالسر القديم :. ما وعى إبليس و الشيخ الحكيم

قد خلا فكرك في القلب السليم :. فأوجد الروح في الكون القديم

قد تجلى لسعيد ألمعي :. مكر إبليس و عشق الآدمي

لقد كان " غوته " يمثل ذلك النمط من المفكرين الذين لهم فهم عميق الإسلام يصل في بعض الأحيان إلى تمثله ، بل رفض قاعدة التثليث التي هي أساسية في الدين المسيحي بمختلف مذاهبه ، و الإيمان بالوحدانية وتعظيمها ، كما حدث في الديوان " شرق – غرب " ، و في شعره ، الذي ألفه ينوه بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ويذكر فضائله و مكارمه أكثر مما يذكرها شاعر مسلم ، لقد كان متأثرا بالشرق إلى حد الوله ، فهو يوظف الآيات القرآنية و الأحاديث والمأثور من الحكمة الشرقية ، إنه الاستشراق الموضوعي و الخطاب الواعي في إطار " العيش مع ..." المبني على التعايش و الفهم والتفهم ، وصف هاته الحالة الوجدانية بقوله : " في ميدان الأفكار يرتبط الكل بالحماس ، وفي عالم الوقائع يرتبط الكل بالمثابرة " .
لم يقتصر التأثير الشرقي في الجانب المتعلق باللغة العربية في الشعر والأدب ، بل تعدى إلى الجانب العلمي و الإجتماعي و الثقافي في تأثيره على أوروبا من خلال الكتابين :-

1- زيغريد هونكه ، Sigrid Hunke في كتابها شمس الله تسطع على الغرب ..
2- ڤيستاف لو بون ، Gustave Le Bon في كتابه " حضارة العرب " ...

وهذا ما يبين تأثر أوروبا بالعرب و المسلمين ، بلغاتهم و حضارتهم حيث أن الأمبراطور" فريديريك 2 " تأثر بالثقافة العلمية و الدبلوماسية العربية في بلاطه ، بل وصل الأمر بالأميرات إلى اتباع الدين الإسلامي الذي تلقينه عن جواريهن ، و لما اكتشف ذلك لم يعترض ! هذا النموذج للتآلف بين الشرق و الغرب (العربي و الجرماني) حيث يلتقيان في الرؤيا النافذة للطبيعة الواقعية للأشياء .. هذا النمط من التفكير الاستشراقي يعكس خطابا عقلانيا علميا ، غير عنصري ، يفسر دورة الحضارات و يستجيب الحقائق التاريخية " لكل أمة لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ..." ، فالغرب في القرن 13 م تأثر بأدبيات الشرق وسلوكه و نمط حياته و ذوقه الفني و الجمالي .

المرجع :

عبدالعزيز رأس مال : نهاية الاستشراق وبداية الاستغراب من الصراع إلى التقارب ...ورقة بحث سابقة

المحاضرة السادسة : نهاية الاستشراق التقليدي ..

لم يهتم الاستشراق التقليدي كثيرا بمشكلات البيئة الاجتماعية و لا حتى بقضايا الاقتصاد و السياسية ، لقد وصف المستشرقون النظام الاجتماعي الإسلامي كمجموعة وحدات عملية (عمودية) منفصلة و مستقلة ذاتيا ، فضلا عن وجود نظرية أو حتى تصور البنية الاجتماعية التي سموها " إسلامية " ، قدم " جيب " و بوان " Gibb,Bowen " تصورا استشراقيا جديدا بانقسام المحكومين إلى وحدات عديدة شبه – مستقلة (مثل : القبائل و الحرف المهنية و القرى و الجماعات التي لم يتأثر استقرارها الإجتماعي بتقلبات الأمبراطورية ككل ، لم يأخذ المجتمع الإسلامي شكل الوحدة الاجتماعية المتكاملة بل يتألف من فسيفساء من المجموعات الاجتماعية المعزولة و المكتفية ذاتيا ، فقد أعطى الإسلام الشرعية للمسيحيين (أهل الكتاب) ، أي الاستقلال االذاتي ، أو الحكم الذاتي للأقليات (المسيحيون ؛ اليهود ؛ الأرمن) فتتألف كل بلد فسيفساء من الشعوب ، لكن تلازمت نظرية المجتمع الفسيفسائي بنظرية الاستبداد الشرقي : - فالتجزيئية تتصل بالحياة المدنية لدى الجغرافية المدينية الاستشراقية من حيث انقسام السلالات و الديانات والثقافات حسب التصور الاستشراقي رغم وجود شيء من التضامن الاجتماعي ...من ثم ، نستنتج نظرية الفسيفساء (الاستبداد الشرقي والمدينة المنقسمة و النخب الدائرة) و هاته النظرية تواجه صعوبة معينة حسب تيرنر : " توحيد النظام الاجتماعي من خلال آليات الطرائق الصوفية و العلماء و الشريعة (القيم الإسلامية) ، و انقسامه بالنسبة للسلالة و التنضيد والرابطة .

لم تقتصر هاته النظرة الخاصة للتنظيم الاجتماعي الإسلامي على المؤرخين المستشرقين ، بل يعاد إنتاجها في الأبحاث المعاصرة لعلم الاجتماع و للعلوم السياسية ، وقد ظهر أن منهجية التحليل عند " بل " Bel وغيره الذي يعمد إلى التصنيف الفيبري – نسبة إلى weber- للطبقة و التي تتأسس على المرتبة والقوة التي تستخرج من تحاليل " داهرندورف " Dahrendorf و لينسكي Linsky و بارسونز Parsons والتي تعطي الأولوية للسياسي و للسلطة على حساب نمط الإنتاج .

النظرية التعددية هي طراز سوسيولوجي للنموذج الفسيفسائي التقليدي ، حيث يضاف مفهوم الشرائح الاجتماعية إلى قائمة المجموعات الاجتماعية الموجودة في السلالة و الدين ؛ كما عرقلت البنية الفسيفسائية المدينة الإسلامية والروح العسكرية الإسلام – حسب ڤيبر – عملية تطور طبقة وسطى خلاقة من الصناعيين و التجار ، فكان الواقع الأبرز في التركيب الطبقي للمدينة الإسلامية برأي المستشرقين هو هيمنة الملاك الجبائيين الذين استمدوا دخلهم من الزراعة على حساب حياة المدن ، في غياب برجوازية مدينية مستقلة ذاتيا .

فكرة التنضيد الاجتماعي ينظمها الفكر الاستشراقي بمعيار ثلاثة أنماط إنتاجية سابقة للرأسمالية : الإقطاعي – الجبائي – البدوي الترحالي ، و يعتقد ڤيبر أنها فرضت قيودا على نمو برجوازية محتملة لأن الإسلام حسبه أضفى الشرف الاجتماعي على خدام الدولة (الجنود والموظفين) بدلا من التجار ، فأصبحت التجارة في الأمبراطورية " حصة " لجماعات من الأقليات (خاصة من المسيحيين و اليهود) .

المجتمع الغربي – كما لاحظنا سابقا – بالنسبة للبعض ، هو رمز للحركية من خلال الديمقراطية ؛ والمجتمع الشرقي متخلف وراكد ومتراجع منذ نشأة (غياب الطبقة الوسطى ، غياب المدينة ، غياب الحقوق السياسية ، غياب للثورات ، فشل الحضارة الإسلامية في إنشاء رأسمالية أو توليد شخصيات حديثة أو تحويل ذاتها إلى ثقافة جذرية علمانية – عدم التماسك النظري في النمط الآسيوي الإنتاج) .
حين يرى الاستشراق في الإسلام اسمنتا يمسك بالفسيفساء المهترئة لمجتمعات الشرق الأوسط ، فإنه يصبح بذلك شبيها و بقوة بالنظرة الدوركهايمية للدين كمصدر للوظائف التكاملية في النظام الاجتماعي .

علم الاجتماع ، كإنشاء للخطاب ، يحتوي على تقليد نقدي للذات يؤسس بانتظام على شكل السوسيولوجيا الانعكاسية ، أو السوسيولوجيا الجذرية ، أو السوسيولوجيا النقدية ...ما نحتاجه حسب تيرنر هو شيء غير الاعتراض على بعض المستشرقين الذين لم يكونوا حياديين أو موضوعيين أو أنهم انسحبوا من العالم الحقيقي للسياسة في الشرق الأوسط – الذي يؤذن بالانفجار – إلى برج عاجي يتعلق بفقه اللغة والشعر والجماليات ...بل ما تتطلبه – نهاية الاستشراق – من نقد أساسي للجذور النظرية و المعرفية الكتابات الاستشراقية التي تغلق التقليد القديم حول الاستبداد الشرقي و المجتمعات الفسيفسائية و المدينة الإسلامية فنهاية هذا الاستشراق التقليدي تتطلب نهاية أشكال معينة من الفكر و إنشاء نوع جديد من التأويل **!** ليس بالجديد أن نقول ، أن الحضور الثقافي الإسلامي في إسبانيا و الجزيرة الإيبرية كان يمثل آنذاك الثقافة الغالبة، تجاه الثقافة الأوروبية التي كانت " مغلوبة " ، سواء في نمط المعيشة أو اللغة ، ولكن توسع اتصال الأوروبيين خلال المساجلات و الحروب ، واتساع الميدان المتاح لمزاج الفنان و الرحالة الغرائبي و الحاج المؤمن و الفضولي الباحث عن اكتشاف الجديد ، هو ما هو مواقع الغالب و المغلوب ، يؤكد على ذلك رودنسون Rodinson بقوله : " منذ القرن 11 م ظهر الاهتمام بميدان الفلسفة و العلوم التجريبية ، التي أحدثت تغيرا في صورة العربي المسلم بعد تعرف الغرب على العلماء العرب و المسلمين ، و بعد ترجمة الكتب في الفلسفة و الطب و الفلك و الرياضيات خاصة بعد فتح طليطلة سنة 1085 م ، التي أصبحت مركزا علميا و ثقافيا " ..

تتسم أعمال رودنسون بالثراء والتنوع ، فهو لم يرتبط بشخصيات معاصرة أو تاريخية (كالحلاج وفوكو عند ماسينيون Massignon) بل رغب في التطرق إلى مواضيع أكثر شمولية ، حيث قصد الشرق للتعرف على المجموعات (الشعوب و المناطق والثقافات ....الخ) في إطار تاريخي ، و منهجه يندرج في إطار المنهج الجدلي ، الذي يفيدنا أن العلم ينتج من التناقض و من الأخطاء المصححة ، وكتابه المعروف " الإسلام و الرأسمالية " كان مجال تطبيق هذا المنهج بامتياز .

المرجع :

رأس مال عبدالعزيز : نهاية الاستشراق و بداية الاستغراب من الصراع إلى التقارب ...ورقة بحث ..

المحاضرة السابعة : القرب الجغرافي و إشكالاته .

إن الجانب السلبي للحروب الصليبية يتمثل في صياغتها داخل قالب من التعصب ضد " الكفار الوثنيين " أي المسلمين ، و هي تعابير تعبر عن الجهل ، و عدم الاحتكاك الذي ينتج عن ضعف الاتصال المرتبط بالنظام القيمي الديني المغلق ، و هذا الأمر تجاوز الإسلام كدين ليطال أصحاب الفرق و المذاهب المسيحية الأخرى ، العالم كان متدينا ، و سجاله كان دينيا متزمتا ، وهذا لم يمنع من الصورة الإيجابية لصلاح الدين الأيوبي ، و ظهور " مستعمرة عربية " أقامها في إيطاليا في النصف الثاني من القرن 13 م من طرف " فريديريك الثاني " الذي المحب للمسلمين و المعجب بثقافتهم و حضارتهم ...لكن في القرن 16 م حين قام " لورانس روفولوف " Lawrens Rovolov؛ برحلته إلى بلاد المسلمين ، و كتب نتائج هذه الرحلة المتعاطفة مع المسلمين و أنماط عيشهم ، طرد من وظيفته في أكسبورغ بألمانيا ، لتعارض ما كتبه مع المعا ييرالمتداولة آنذاك !
بعد اكتشاف " ألف ليلة و ليلة " ، و حكايات شهرزاد و السندباد البحري ، و ترجمتها في القرن18 م تراجع التأثير الديني – الغيبي و حدث التثاقف بين شعوب الشرق و شعوب الغرب ،و هنا نشأت القوة التي أفضت إلى الاحتلال الأوروبي التي استعادت ذاكرة حروب الجزيرة الإيبيرية و السلطنة العثمانية ، و كان رد الفعل عنصريا لم يترك مكانا للقيم و التصورات و الأفكار .....
ثم ظهر " رينان " E.Renan الذي اعتبر الإسلام و المسيحية دينان عالميان ، على عكس الأديان و الحضارات الآسيوية التي تعتبر " محلية " ، رغم ما نتحفظ فيه من بعض الآراء الأخرى له والتي تتعارض مع الحقائق الظاهرة .

إن القرب الجغرافي بين بلاد المسلمين (أوروبا) ، و بلاد المسلمين قد أثر على أحكام و ممارسات كثيرة حيال أمم و شعوب و أديان في أوروبا و خارجها ، و على تماس مع مسيحييها ، حتى القرآن ترجم في حيز يسوده الجهل و الانحياز والتعصب ...بعد ذلك بدأت التيارات الإيديولوجية تكتسح هذا المجال ، و حلت المغالاة في النسبية الثقافية محل الدراسات الأكاديمية العلمية الرصينة ، و كأن المناظرة أصبحت مختزلة في نظرية الداخل (نحن) ، و نظرية الخارج (المستشرقون و من ورائهم الغرب) هي التي تحدد زمننا و زمنهم ! و عالمنا و عالمهم ! و أصبح الربط سهلا بين الجزئي (الاستشراق) و الكلي (الغرب) في مفهوم واحد ، ومن ثم أصبح العربي – المسلم كائنا ثابتا لا يتغير يتعرض لهذا الشر القادم من الغرب ومن الاستشراق.
إذا عزلنا الصورة المتوهمة و المتخيلة بأن الغرب اخترع الشرق ، و نقوم بتحليل علاقة العرب والمسلمين بالعالم المعاصر ، نلاحظ أنهم يرون بأنه يتسم بانحطاط أخلاقي و تفتت عائلي و بالتآمر من خلال السيطرة الصهيونية ذات العمق اليهودي على كل شيء ، و انتشار " مرض السيدا ، لكن هذه الظواهر نفسها موجودة في البلاد الشرقية !

يذكر " أمين معلوف " بأن الغرب كف على أن يكون صليبيا منذ سبعة قرون ، و هو علماني و صناعي حاليا ، ولكن العرب ما زالوا يخوضون هاته الحرب المتوهمة ، فالعرب و المسلمون يخترعون أوروبا كعدو لا يموت بطريقة وهمية ، فعدم موته يبرر لخصومه الحياة – أنظر حازم صاغية – ! يبدو هذا الحكم من وجهة نظري ، غير مكتمل إذ نشهد في العصر الحالي تغول الكتل الكبرى – أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية – على العالم العربي لعب دور " الدركي " في ميدان الصراع العربي – الصهيوني خاصة ، حيث تظهر العداء المباشر أمام كل محاولة للانفلات من هذا الأسر ، و تقمع الأصوات الحرة بمساندة أنظمة حاكمة مستبدة تقهر شعوبها !
ماهو مطلوب من الطرفين ، من الاعتراف المتبادل بقيم الآخر ، و تجاوز الجهل الذي حدث في الماضي

ونسيان الجور و تجديد المعارف ، و التقييم الموضوعي للاختلاف ، و لابد من التفاهم و الاتفاق مكان الجدل العقيم و الصراع الذي انعكس على الوعي الجماعي للأمم المتصارعة ، فأصبحت ردود الفعل المتسرعة و الأفكار المسبقة تأخذ مكان المعرفة الجيدة ، و لابد من مصالحة على أساس برامج مشتركة للقيم من خلال حوار يرقى القيم الإنسانية ، و الأخوة بين البشر ، بل حوار الصبر الذي يميز الدين الإسلامي عن غيره من الأديان .

أما أهم وجوه الاستشراق الجديد ، فهم لويس ماسينيون Masignon وكارل بروكلمان Brockelman ؛الذي تتلمذ على ولهاوزن Wellhausen وبارتولد Berthold أما لاوست Laoust وكوربان Corbin و آخرهم درمنغام Dermenghem و أندري ميكال؛ A .Miquel و جاك بيرك j. Berque ، فهم يمثلون جيلا جديدا على إختلاف مشاربهم ربط بين العلوم الإجتماعية و الاستشراق كحقل معرفي .

لقد تناول ماسينيون التصوف الإسلامي و هو موضوع تخصصه و العمل الكبير الذي اشتهر به هو. " الحلاج " و الذي هو موضوع و مجال جديد يسمح بربط التصوف كظاهرة ، و مجتمع العراق آنذاك ذو المسحة الإيرانية كفضاء و كحقل واقعي ، فهو يكتب عن العرب و عن الإسلام و عن الصراع بين إسماعيل و إسرائيل ، من حيث أن التاريخ العربي يبدأ بدموع هاجر ...!

لقد كان منشغلا بالإسلام التراثي – العقيدي مثله مثل لاوست و كوربان ، الأول تناول الإسلام السني (ابن تيمية و تاريخ الفرق الإسلامية) ، والثاني تناول الإسلام الشيعي و التراث الفلسفي و الصوفي الإيراني ؛ أما أندري ميكال في كتابه الإسلام وحضارته من القرن السابع إلى القرن العشرين و الذي قسمه وفق حقب متوافقة مع الواقع الزمني للمجتمع الإسلامي حيث قلص فيه من الثغرات الإخبارية التي كانت منتشرة في التاريخ الوصفي للمجتمعات العربية- الإسلامية التي لا تبرز الطوائف و الفئات الاجتماعية إلا من خلال الضرورة القصوى أثناء الاضطرابات و الأزمات التي تسمى مجازا **بالفتنة** ، و مهمته كأحد جغرافيي الإسلام المرموقين جعلته بكثير من الفطنة يتعرض إلى الحرف و الممارسات والنشاطات الاقتصادية و التطور الثقافي للإسلام من الناحية المجالية ، كما تخطى عتبة الاستشراق التقليدي نتيجة لجمعه لشتات المعلومات الموزعة على المصادر التراثية الكبرى والمخطوطات التي تزخر بها المكتبات والتي تعكس التاريخ الاجتماعي للمجتمعات الإسلامية ، كما أول العلاقات الخفية و موازين القوى التي كانت تربط بين المصاهرة العائلية وقيام الخلافة الإسلامية بعد الخلافة الراشدة التي لم تكن حيادية .

يحلل " آدم ميتز " A.Metz؛ أحد عظماء الفكر الألماني يحلل القرن الرابع الهجري ،أو العاشر ميلادي من خلال جوانب تعكس قطعا من الحياة الاجتماعية / الدينية كما يعيشها أهلها ، سواء من ناحية الدين أو العادات و أحوال المعيشة أو الأخلاق أو التصوف أو الأشراف أو العلماء وعلاقتهم بالخلافة ، وكما نلاحظ فإن طبيعة الاستشراق الألماني ينحو في تحليله إلى الميل بصورة واضحة و صادقة بتحليل الواقع التاريخي بطريقة موضوعية والتكامل المنهجي – حسب محمد عارف – في تحليل الاستشراق يعتمد هنا على استنطاق المصادر التراثية ، تأخذ فيه السير و النظم أشكالا متواترة ، وهي تعطي للخطاب الاستشراقي صورة محاكية للخطاب التراثي في عمومه ، وهذا ما نلاحظه عند درمنغام Dermenghem الذي يستعرض الحياة الصوفية و السير الذاتية لعدد أقطاب التصوف على ممر العصور .

أما بل A. Bel فدراسته عن الفرق الإسبانية في الشمال الإفريقي ، ليست دراسة أكاديمية بقدر ما هي دراسة للأنثربولوجيا الدينية التي تشرح التاريخ من خلال رؤيا اجتماعية / اقتصادية / سياسية ..لقد كان مميزا في تحليله ،فهو خطاب لاستشراق جديد ، تاريخي في مضمونه ، ذو تركيب منهجي متناسق ، وما زاده تألقا هو الترجمة العربية الفريدة من نوعها للأستاذ عبدالرحمن بدوي ، فأسلوبه في الترجمة يوحي كأن الكتاب كتب بالعربية ، بسلاسة اللغة العربية و رقة أسلوبها ، و متانتها التي تبتعد عن التعقيد ، ونفس الملاحظة تنطبق لترجمة عبدالهادي أبوريدة في كتاب " الحضارة الإسلامية " لآدم متز .

<u>المرجع</u> : رأس مال عبدالعزيز : نهاية الاستشراق و بداية الاستغراب ..ورقة بحث سابقة ..

المحاضرة الثامنة : الاستشراق و السوسيولوجيا

هذه المحاضرة هي جزء من بحث قام به طالب الدكتوراة **" نذير مخلوفي " – رحمه الله –** الذي أقدمه للطلبة والذي أسترجع به ، ذكرى طالب دكتوراة مجد و مجتهد و أتمنى الانتفاع به ، وأعتبر ذلك عرفانا له ، حتى لا ينقطع **"علم ينتفع به " ..أتمنى الاستفادة منه .**

يرى مخلوفي ، أن هناك تقصير على مستوى سوسيولوجيا دراسة الاستشراق ، فباستثناء أعمال إدوارد سعيد وهشام جعيط و أنور عبدالمالك ، فإن الدراسات المتعمقة في تحليل تطور البنى المعرفية الاستشراقية وربطها بالبناء الإقتصادي و الاجتماعي و التطور التاريخي تكاد تكون معدومة – نعني به الكتاب العرب – ومن هذا المنطلق فإن هذه الورقة هي مجرد محاولة أولية لتحديد الأطر الإجتماعية المؤسسة المعرفية الاستشراقية عبر تطورها التاريخي مع قراءة لأبرز أطروحاتها ومقاربتها الموضوع .

أدت الحركة الصليبية في عصر الإقطاع دورا تأسيسيا في رسم معالم العلاقة بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي ، وقد جسدت هذه الحركة و هذا المشروع النواة الصلبة لحركة عدائية ستستمر لمدى طويل والتي عملت على تأسيس الشرخ العميق و الهوة التي فصلت بين الشرق و الغرب ، وفي هذا السباق يدخل الزمن الصليبي في صلب العلاقات التاريخية المتوترة والعدائية التي وضعت الإسلام دائما في حالة دفاع متواصل ضد الغرب الذي أفزعته انتصارات و فتوحات الإسلام ، إلا أن الأهداف الحقيقية المشروع الصليبي لم تكن مجرد استجابة لضرورات دينية و إنما كانت في جوهرها تحقيق لأهداف و أطماع تجارية واقتصادية في الشرق من جهة ، و تجسيد مادي وتاريخي لفوبيا Phobia أوروبية – إيديولوجية من هذه القوة المتصاعدة من جهة أخرى " فقد شكل المسلمون بالنسبة للغرب المسيحي لفترات طويلة خطرا قبل أن يصبحوا معضلة (مكسيم رودنسون Rodinson جاذبية الإسلام : ص 15).

من هنا، يصبح من الضروري وضع الدافع الديني في إطار الدوافع الرئيسية التي تحكمت إلى حد بعيد في مسار الأحداث و نتائجها و التي يميل البعض إلى تجاوزها و التقليل من شأنها .

الواقع أن الدافع الديني لم يكن سوى ذريعة لتغطية الدوافع التجارية والاقتصادية و السياسية الكامنة في هذا المشروع ، وهذا ما يؤكده العديد من الباحثين و الأكاديميين و المؤرخين العرب والأجانب الذين أرخوا للحملة الصليبية .

ترافق هذا الأمر مع حملة من الاضطهاد والفقر شهدته أوروبا عانى منه الفلاحون و الأقنان أكثر طبقات المجتمع الإقطاعي معاناة من الحرمان بسبب استبداد رجال الإقطاع وتسلطهم ، و مما زاد الأحوال الاقتصادية ترديا هو سوء المواسم الزراعية والكوارث الطبيعية و المجاعة و انتشار الأوبئة والأمراض الأمر الذي أرهق كاهل الطبقات و زاد من بؤسها ، بالإضافة إلى ذلك فقد كان لفوضى الصراع الاجتماعي بسبب الحروب الداخلية المتواصلة بين الأمراء الإقطاعيين الدور الفعال في تفاقم هذه الأزمة الاقتصادية الخانقة ، و قد دفعت هذه الأزمة التي سبقت هذا المشروع مباشرة بالكثير من أبناء الطبقات المختلفة للمشاركة فيه على أما الخلاص من ظروفها المعيشية السيئة .

لقد هيأت هذه الظروف المناخ المناسب للسلطة الدينية لاستغلاله في تحقيق مشروعها الذي تحول إلى سياسة خارجية شبه – وحيدة للبابوية ، هذه الخلفية التاريخية تمثل الإطار الإقتصادي و الاجتماعي ، بدونها لا يمكن تناول المعرفة المتعلقة بالشرق من حيث المحتوى و الشكل و السياق في إطار سوسيولوجيا المعرفة ، سواء كارل مانهايم أو ماكس شيلر أو ماكس ڤيبر لا تكتفي بتحديد البعد السوسيو- تاريخي المعرفة ،بل لا بد من ربطها بالوظيفة الاجتماعية و بالأطر الاجتماعية – الاقتصادية التي انبثقت عنها ، والدور الذي يقوم به هذا الناتج المعرفي في خدمة النظام الاجتماعي والسلطة المتحكمة فيه .

ولما كانت المؤسسة الكنسية المؤسسات نفوذا أو سلطة في عصر الإقطاع ، فمن الطبيعي أن يكون محتوى المعرفة المتعلقة بالشرق أثناء الحروب الصليبية و في أعقابها محتوى دينيا منسقا في مجمله مع الأوضاع الاجتماعية التي سادت في مرحلة الإقطاع من جهة ، و الرامية إلى خدمة هذه المؤسسة الدينية – الكنسية من جهة أخرى ، ففي هذه الفترة التاريخية من تطور المجتمع الغربي شكل الدين نظاما اجتماعيا متكاملا تداخلت في تكوينه عناصر اجتماعية واقتصادية وتاريخية أهلته للقيام بوظيفة الدفاع العام لتحقيق التضامن الجماعي بين أفراد المجتمع ضد الإسلام .

انطلاقا من هذه الخلفية لجأت السلطة الدينية الكنسية لتصوير الدين الإسلامي على أنه التهديد أو الخطر الذي يهدد الجماعة في وجودها و وحدتها ، اذا شنت بوصفها أقوى مؤسسة معرفية ، أي حملة معرفية تحضيرية منظمة ضد الإسلام و المسلمين مقدمة الإسلام على أنه " دين رجعي " و قمعي وباطل أوجده رجل " مشعوذ " ، و " دجال كبير " - هذا هو الاتهام الذي جاء على لسان مشركي قريش - ، أما المسلمون فهم متوحشون " كفار " ، " مهرطقون " ، و هكذا نجحت الكنيسة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر في تعميم ثقافة الكراهية ضد الإسلام و المسلمين ، على الرغم أن العديد من الرحالة و التجار قد جذبهم الشرق بغناه و ثروته ، فتزايد عدد من قدم بحثا عن المغامرات أو الصفقات و المال ، بل تزايدت أيضا جنبا إلى جنب حملات التبشير والمبشرين ، وسجلت العديد من الكتابات في هذا المجال ، إلا أن هؤلاء التجار والرحالة ما جاؤوا إلى الشرق إلا و معهم أفكارهم المسبقة وصورهم الجاهزة Pre-seteortypical images عن الشرق ، فلم يعطوا لأنفسهم الفرصة الكافية للتعرف على هؤلاء الآخرين ، ولم يحاولوا فهم البنية السياسية و الإجتماعية للمجتمع العربي ، ولم يقيموا أي نوع من التفاعل المباشر بينهم و بين الآخرين من شأنه أن يعدل من حدة هذه الاتجاهات المسبقة النمطية الجامدة ، هكذا فإن العديد من الصور النمطية عن الشرق كانت قد خلقت ذاتيا Self created إلى حد كبير بهدف ملاءمتها للحاجات الاقتصادية و السياسية لهؤلاء الرحالة و التجار ..

لقد تحول المسلم على يد هؤلاء إلى " غني " و " قرصان " و " تاجر رقيق " فضلا عن كونه " مهرطق" و " متوحش " و " همجي " كما في التمثلات السابقة ، كان هناك جمهور كبير يتلقف ما يكتب عن الشرق، والواقع أن الدراسات الإستشراقية انطلقت من هذه البيئة و من هذا الإطار ، و نحن لهذا السبب يجب أن ندرك الإرتباط بينها و بين التبشير ، فقد صادق مجمع ڤيينا الكنسي 1312 م على أفكار روجر بيكون 1214 م – 1294 م ، و ريمون لول 1232 م - 1316م ، و اللذين كان يعتقدان بضرورة دراسة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها ، و بالتالي حان الوقت لإخضاع المسلمين عن طريق التنصير كي تزول العقبة الكبيرة التي تقف في سبيل تحول الإنسانية كلها إلى العقيدة الكاثوليكية ، وقد صادق مجتمع ڤيينا على هذه الأفكار ، و أقر تعلم اللغات الآسيوية و الإفريقية و منها : العربية تحديدا إلى خمس جامعات أوروبية (باريس – أكسفورد – بولونيا – سلمنكا – جامعة المدينة البابوية) .

مما هو جدير بالذكر أن قرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كمبريدج سنة 1626 م نص صراحة على خدمة هدفين ، أحدهما تجاري و الآخر تبشيري – كهنوتي ، بهدف توسيع حدود الكنيسة و الدعوة إلى الديانة المسيحية ، بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات ! كما جاء في خطاب للمراجع الأكاديمية المسؤولة في جامعة كمبريدج إلى مؤسس هذا الكرسي .

<u>المرجع</u> : نذير مخلوفي : رؤية الاستشراق إلى الإسلام ...ورقة بحث في دكتوراة علم الاجتماع الديني 2014 – 2015 م .